﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رفعُ عيسى عليه السلام عنايةٌ مِن الله تعالى، وردٌّ لكيد الكافرين:

بيان مكر الله بهم

الآيةُ تحكي أَمر رَفْعِ الْمَسِيحِ وَإِخْفَائِهِ عَنْ أَنْظَارِ أَعْدَائِهِ، بعد أن قَدَّمَ الله تعالى في خِطَابِهِ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ اسْتِئْنَاسًا لَهُ، إِذْ لَمْ يَتِمَّ مَا يَرْغَبُهُ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَتَبْشِيرًا لَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ؛ لِأَنَّ غَايَةَ هَمِّ الرَّسُولِ هُوَ الْهُدَى وَإِبْلَاغُ الشَّرِيعَةِ[1]، وقد أحسّ عيسى من بني إسرائيل الكفر، والتّبييت، والتّآمر لقتله، فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة[2]، وأنّ تلك سنّته في نصرة عباده، وحماية أوليائه الصّالحين.

وفي الآية بيان مكر الله تعالى بهم في الدّنيا والآخرة، وتفصيل ذلك إثر ذكر مكر الله بهم في الآية السّابقة، على سبيل الإجمال، وما ذكرت تفاصيله تفريعًا، كان أمعن في التّهديد، وأبلغ في الوعيد.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: وَفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكْمَالٍ وَإِتْمَامٍ، أو تَدُلُّ عَلَى نُمُوٍّ وزيادةٍ، يبلغُ بها الشيء تَمَامَهُ، فالْوَفَاءُ: إِتْمَامُ الْعَهْدِ وَإِكْمَالُ الشَّرْطِ، وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ وَاسْتَوْفَيْتُهُ إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ، حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/257 - 258.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1500.

مِنْهُ شَيْئًا، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفَّاهُ اللّه، لأنّه استوفى ما كتبه اللّه له في حياته[1]، وفي ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أقوال: أحدها: قابِضُكَ برفعك من الأرض إلى السَّماء، غير وفاة موت. الثَّاني: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة نَوْمٍ؛ لأرفعك إلى السَّماء، أي: رفعه نائمًا. الثَّالث: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة موت. قيل: أماته ثلاث ساعات[2]، وفي التّفسير الكبير، ذكر الرّازيّ، بأنّه يلمح أنّ " التّوفّي أخذ الشّيء وافياً، ولمّا علم اللّه أنّ من النّاس من يخطر بباله أنّ الّذي رفعه اللّه هو روحه لا جسده، ذكر هذا الكلام، ليدلّ على أنّه ﷺ رفع بتمامه إلى السّماء بروحه وبجسده"[3]، وهو ما يشبه تعبير اللّه عن تأكيد وقوع الإسراء بالرّوح والجسد، لا بالرّوح وحدها، في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، إذ أنّ ذكر لفظ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، يفيد أنّ الإسراء قد كان بهما معا، لا بالرّوح وحدها كما يدّعي بعض المنكرين للحادثة.

2) ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾: الرّفع: نَقْلُ الشَّيْءِ مِن سُفلٍ إلى عُلُوٍّ بجذبه مِن أعلى أو دفعه من أسفل[4]، وقوله: إِلَيَّ، إضافةُ تشريفٍ[5]، "والرّفع يكون تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرّها، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النّساء: 154]، وتارة في البناء إذا طوّلته ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارة في الذِّكر إذا نوّهته، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشّرح: 04]، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: 32] "[6].

3) ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: الطُّهْرُ: نَقَاءٌ وَزَوَالُ دَنَسٍ، أو: نقاء الشيء مما يُدَنِّسُهُ أو ممَّا يُتَأَذَّى به[7]، فطهَّر اللّه العظيمُ نَبِيَّهُ عيسى من دعاوي الكَفَرَة ومعاشرتهم القبيحة له[8]، ومعنى ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: "أي مخرجك من جملتهم، ومنزّهك أن تفعل فعلهم، وعلى هذا: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (وفى).
(2) المجاشعي، النُّكت في القرآن، ص: 179 - 180.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/237.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رفع).
(5) الرّاغبُ، المفردات: 2/418.
(6) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (رفع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/444.

تَطۡهِيرًا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: 33] "[1]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: 79]، تعني: "أنّه لا يبلغ حقائق معرفته إلّا من طهّر نفسه، وتنقّى من درن الفساد"[2].

4) ﴿وَجَاعِلُ﴾: الجعل: تحويل الشّيء إلى وضع أو هيئة معيّنة، وهو في القرآن يكون للتّحويل والتّهيئة على وضع، أو للخلق، وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة[3]، والْجَعْلُ هنا بِمَعْنى الحُكم بالشَّيْء على الشَّيْء حَقًّا[4]، وجَعَل: أي صيّر، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة، 124][5].

5) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾: الاتّباع: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَال: تَبِعَ فلَانٌ فلَانًا واتَّبعه، وتَبِعَهُ واتَّبَعَهُ: قفاه[6]، وتارة يكون بالجِسم، نحو: تبعته في الطَّريق واتبعته فيها، وتارة بالامتثال، ومعناه في الآية الاتِّباع في الدِّين والشَّريعة، وهم المسلمون؛ لأنَّهم مُتبّعوه في أصل الإسلام، وإنِ اختلفتِ الشَّرائع[7].

6) ﴿فَوۡقَ﴾: الفَوْقُ والإِفَاقَةُ ونحوُهما: فراغٌ يعلو الشَّيْءَ أو عُلُوٌّ معَ فَرَاغٍ[8]، وهم الّذين مكروا بعيسى عليه السلام ومن تَبِعَهُم من اليهود والنّصارى، فإنَّ أهلَ الإسلام فوقهم ظاهرين بالعِزَّة والمَنَعة والحُجَّة[9].

7) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: الرَّجْعُ والرُّجوعُ: تحوّلٌ عن اتِّجَاهٍ أو حَالٍ إلى عكسه بِعَوْدٍ أو رَدٍّ وتَكرارٍ[10]، والمرجع: موضع الرُّجوع، أي إلى حكمي وعدلي[11]، والمعنى في الآية إليّ معادكم ومصيركم يوم يؤوب النّاس إليّ، ويجتمعون في عرصات القيامة، لاستيفاء حسابهم وجزائهم، بدقّة وعدل وإنصاف.

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (طهر).
(2) الزّين، المرجع السّابق، مادّة: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(4) الكفوي، الكُلِّيّات، ص: 347.
(5) الجِمْبِرْيّ، شمس العلوم: 2/1115.
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، ابن فارس، مقاييس اللّغة، الرّاغبُ، المفردات: (تبع).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/177، السّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/268.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/44.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع).
(11) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/139.

8) ﴿فَأَحْكُمُ﴾: أصل الحكم المنع، أو: ضَبْطٌ يمنع من حدوث تسيّب أو خلل، ومن الضّبط ومنع التّسيّب الحُكْمُ: بمعنى القَضَاء، لأنّ القاضي يَضْبط أمر كلّ من الفريقين، مانعًا أن يدخل أيّ منهما على الآخر في حَقِّهِ، والحاكم: السّلطان هو من الضّبط العامّ[1]، والحكمُ مصدرُ حَكَمَ يَحكُمُ، ومعناهُ القَضاء بالشَّيء أن يكونَ كذا أو ليس كذا، فالْحُكْمُ فِيمَنْ كَفَرَ هُوَ أَنْ يُعَذِّبَه اللّه عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْحُكْمُ فِيمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَهُوَ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ[2].

9) ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ: أَن يأخذَ كُلُّ واحدٍ طريقًا غَير طريقِ الآخر في حَالِهِ أو قَولِهِ، والاِخْتِلَافُ في الآية هُوَ أَنْ كَفَرَ قَوْمٌ وَآمَنَ آخَرُونَ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

العنايةُ الإلهيّة بعيسى عليه السلام، بإكرامه وحفظه من مكر أعدائه:

مَكَرَ اللّه بالكافرين أيضًا حين قال مخاطبًا عيسى عليه السلام: يا عيسى، إنِّي قَابِضُك من غَير موتٍ، ورافعٌ بدَنَكَ وروحَكَ إليَّ، ومُنزِّهُك من رِجْس الَّذين كفروا بِكَ ومُبعِدُك عنهم، وجاعل الّذين اتَّبعوك على الدِّين الحقّ، ومنه الإيمان بمحمَّد صلى الله عليه وسلم، فوق الَّذين كفروا بك إلى يوم القيامة بالبُرهان والعِزَّةِ، ثمَّ إليَّ وحدي رجوعكم يوم القيامة، فأحكم بينكم بالحقِّ فيما كُنتم فيه تختلفون[4]، وهو تأكيدٌ منه تعالى على أنّه رافعُ المسيح إلى محلّ كرامته، ومنجيه من أعدائه الّذين قصدوا قتله، وجاعل المتّبعين له، الّذين لم ينحرفوا عن دينه، ظاهرين بالقوّة والسّلطان على الّذين لم يهتدوا بهديه إلى يوم القيامة، ثمّ يكون مصيرهم إليه في الآخرة، وبذلك يقضي بينهم فيما تنازعوا فيه[5]، من أمر الدّين، ممّا وقع فيه الاختلاف عبر التّاريخ، واللّه هو الّذي يملك الفصل في ذلك الخلاف، ويحدّد معالمه ومآلاته.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/440، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (حكم).
(3) الرّاغبُ، المفردات، ص: 295، الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/440.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/237، الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/185، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 79.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ نداء العَين في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾:

نـــداء الـعـين إشعارٌ بالتَّحبب والـتَّـقـرُّب، وترقيقٌ للكلام مع نبيّهِ

نداء الله تعالى بعض أنبيائه ورسله بأسمائهم يُطلق عليه نداءُ العَين، وهو نداءٌ غرضه التَّعظيم والتَّشريف وعلوّ المنزلة والاسْتِئْنَاس، فإنَّ القرآنَ يُكَرِّم من يتوجَّه إليه بالنِّداء. وعندما ينادي عيسى باسمه المُجرَّد: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾، فهذا يُشعر بالتَّحبب والتَّقرُّب؛ وبما أنَّ المناسبة هنا مناسبة وفاةٍ فلا بدَّ أن يُرَقِّقَ الكلام معه، ففي هذا الموضع لا يحتاج إلى أن يذكُر أمَّه، كما في قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 110، و112، و116][1].

نكتةُ توكيد جملة التَّوفّي، والرّفع:

التأكيدُ في مَقام التَّشريف يزيدُ المخاطَبَ تشريفًا

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تأكيدٌ للخَبَر بـ (إنّ) واسميَّة الجُملة، وفائدته ترسيخ حصول فعل (التوفّي، والرّفع)، وإنه تعالى فاعله، فلا يشكّكنَّ أحدٌ، أو يكذّبَنَّ الخبرَ. وفيه مزيدُ تشريفٍ لعيسى عليه السلام؛ فـ" التأكيد في مقام التشريف يزيد المخاطب تشريفًا"[2].

قصديّة التعبير بلفظ التوفّي:

سعة معنى لفظ الـتـوفّي يناسب غموض طبيعة الاسـتـيـفـاء وطريقته

ظَاهِرُ مَعْنَى (التوفّي): الإماتَةُ، هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذَا الْفِعْلِ فِي مَوَاقِعِ اسْتِعْمَالِهِ غالِبًا؛ لِأَنَّ أَصْلَ فِعْلِ تَوَفَّى الشَّيْءَ أَنَّهُ قَبَضَهُ تَامًّا وَاسْتَوْفَاهُ، وهو وجهٌ من وجوه تفسير اللفظة وغيرها من الوجوه كثيرٌ أوردها الرازي في تفسيره، وأشهرها الرّفع إلى السماء[3]. باختلاف ألفاظ التعبير عنه، فـ" يجوز أن يكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: آخذك إليّ من غير أن يصلوا منك إلى محجم دم"[4]، أو"مستوفي أجلِك ومؤخِّرُك إلى أجلك المسمَّى عاصِماً لك من قتلهم أو قابضُك من الأرض، من: توفيتُ

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/228، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/362.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/237 - 238.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/421.

مالي أومتوفيك نائماً"[1]. وذهب ابن عاشور إلى أنّ آيَةُ الْمَائِدَةِ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 117]؛ تدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تُوُفِّيَ الْوَفَاةَ الْمَعْرُوفَةَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عِلْمِ مَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ، ليرجِّحَ أَنَّهَا وَفَاةُ مَوْتٍ، ولا وجه لحمل الفعل على معنى النَّوْمِ، والرَّفْعِ[2].

وجه تفسير التوفّي على طريق التقديم والتأخير:

ترتيب الجملة أنّ التوفّي يكون بعد الرفع والإنزال في آخر الزمان

من وجوه تفسير لفظ (التوفّي) في قَوْلِهِ: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: التقديمُ والتأخيرُ، قالوا: إنّ قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يقتضي أنّه رفعه حيًّا، والواو لا تقتضي الترتيب، ففي الجملة تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إليَّ ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالي إيّاك في الدُّنيا[3].

دلالة الاستعارة التَّصريحية في لفظ التوفّي:

وجه الاستعارة تشبيه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك

إِطْلَاق التَّوَفِّي على النَّوم في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ استعارةٌ، حيثُ شَبَّه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك في كلٍّ مِن النَّوم والوفاة، وحذَفَ المُشبَّه وهو النَّوم، وأبقى المُشبَّه به، وهو الوفاة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وذلك على قول مَن فَسَّر التَّوَفِّي في الآية بالنوم، وفيه كناية إيمائية؛ وذلك لأنَّ عِصمة نبيّ الله مِن قتل الكفَّار من لوازم الموت حتف الأَنْف.

عِلَّة العُدول عَنْ لَفظ (عَاصِمُكَ) إلى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾:

كلامُ الله تعالى مظهرٌ من مظاهر عظيم قُدرَتِهِ في بيان رعايته لعبده عيسى وخِذلانه لأعدائه

عَبَّر بلفظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ ليؤذن بعِصمة خارقة للعادة خارجة ممَّا عليه المتعارف، فإنَّ رُوحَ الله لـمَّا خاف مَعَرَّة الأعداء، وقَتْلَهُمْ إيَّاه قِيل له: لا تخف، فإنَّهم لن يقتلوك أبدًا ولن يصلوا إلى مُتمنّاهم[4]. فالعصمة منعٌ فَحَسْب، أمّا التوفّي فمنعٌ بفعلٍ مُعجِزٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/238، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/238.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/120.

بلاغة الكناية في لفظ التطهير:

إخراجُ عيسى مِن بين قومه سالماً هو تطهيرٌ من دَنَس الكافرين

لقد عَظَّمَ اللّه تعالى شَأْنَ عيسى بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِلَيْهِ، كما أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَى التَّخْلِيصِ بِلَفْظِ التَّطْهِيرفي قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ مُبالغةً في إِعْلَاءِ شَأْنِه، وَتَعْظِيمِ مَنْصِبِهِ عِنْدَه تَعَالَى[1]. وجَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا دَنَسًا وَنَجَسًا فَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ، وخِلْطَةَ الْفُجَّارِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الدَّنَسِ في الثَّوْبِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى يُخَلِّصُهُ مِنْهُمْ، فَكَنَّى عَنْ إِخْرَاجِهِ مِنْهُمْ وَتَخْلِيصِهِ بِالتَّطْهِيرِ[2]؛ فهو تطهيرٌ من كلّ رجسٍ معنويٍّ أو حسّيٍّ، ومن كلّ أذًى حسّيٍّ أو معنويٍّ[3].

إيثارُ لفظ التّطهير على التّخليص:

في لفظ التّطهير رفعةٌ للمخاطَب، وتعظيمُ شأنٍ

نقل أبو حيان عن أبي مسلم أنّه قال: " التَّخليص، والتَّطهير واحد، إلّا أنّ لفظ التّطهير فيه رفعة للمخاطب، كما أنَّ الشهود والحضور واحد، وفي الشهود رفعة. ولهذا ذكره اللّه في المؤمنين، وذكر الحضور والإحضار في الكافرين"[4].

سرُّ العدول إلى الإظهار دون الإضمار:

في الإظهار إِشَارَةٌ إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ

وَأَتَى بِلَفْظِ الظَّاهِرِ لَا بِالضَّمِيرِ مُمَهِّدًا بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وَهُوَ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم يقل: (منهم)؛ إِشَارَةً إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ، وترسيخ بالموصول لكونه فيهم، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ» ليجعلَ عِلَّةَ تَطْهِيرِهِ الْإِيمَانَ[5].

دلالةُ كاف الخطاب في لفظ: ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾:

الْكَافُ في قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ ضَمِيرُ عِيسَى عليه السلام،

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/238.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1245.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178، الحديث رواه البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (285)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (371).

كَالْكَافِ السَّابِقَةِ في الآية. وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مِنْ تَلْوِينِ الْخِطَابِ[1].

استحضارُ ضمير المخاطب من تلوين الخطاب

علّة التعبير بلفظ الفوقيّة:

تحتمل لفظة ﴿فَوْقَ﴾ في قوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فوقيَّة الإدراك، والإيمان، والإخلاص؛ وذلك لأنَّ سبب الفوقيَّة هو الاتّباع، والمُسبّب من جنس السّبب، فالسّبب معنويٌّ روحيٌّ، فالفوقيَّة روحيَّة معنويَّة، وهو ما يُضعف فوقيَّة السيف والسِّنان، ويقويّ فوقيّة الحجة والبرهان[2]. وتحتمل فوقيّة الحجّة والسِّنان وهو ما رجّحه الزَّمخشري بقوله: "يَعلُونهم بالحُجَّة، وفي أكثر الأحوال بها، وبالسَّيف"[3]، فهي فوقيّة بالحجة، والبرهان، والعزة، والمنعة، والغلبة[4]. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّها فَوْقِيَّة دُنْيَوِيَّة بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[5]. فإذا انحرف المنسوبون لعيسى، وظهر الفَساد فيهم بمعاصيهم، ومخالفتهم له، لم يُستنكر تخلُّف هذا الوعد الرَّباني الكريم لتَخلُّف شَرْطِه، وعندئذٍ لم يكن هناك مانعٌ من تسليط عدوهم عليهم؛ عقوبةً لهم وتذكيرًا.

الفوقيَّة روحيَّة معنويَّة بالإدراك، والإيمان، والإخلاص، والحجّة، والبرهان؛ وحسّية بالعزّة، والمنعة، والغلبة

فائدةُ حَذف مُتَعَلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

أوجز في الخطاب بعدم ذكر مُتعلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ وذلك لِظُهُورِهِ، وتقديره: الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ وَهُمُ الْيَهُودُ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ مَا كَفَرُوا بِاللَّهِ بَلْ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ عِيسَى؛ ولأنَّ عِيسَى لَمْ يُبْعَثْ لِغَيْرِهِمْ، فَتَطْهِيرُهُ لَا يُظَنُّ أَنَّهُ تَطْهِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ[6].

استغنى بالمذكور للإيجاز، ولظهور المعنى

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1245.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 1/367.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(6) المصدر نفسه: 3/259.

دلالة الغاية في جعل الفوقيّة:

إنّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ إلى يوم القيامة، ولا يعني هذا تخلّص الكفرة من الذلّة

دلّت الغاية في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ على أنَّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ في الظَّرف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، لا على مَعْنى أنَّ الجَعْلَ أو الفوقيَّةَ تنتهي حينئذٍ ويتخلَّص الكفرةُ من الذِّلَّة؛ بل على مَعْنى أنَّ المسلمين يعلُونَهم إلى تلك الغاية، فأمَّا بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد[1].

بلاغةُ الالتفات في الآية:

الالتفات إلى الخطاب أبلغُ في الاعتناء، والتَّبشير، والإنذار

وقع الالتفاتُ في الآية الكريمة من ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، إلى المخاطب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ ليدُلَّ على شِدَّة إرادة إيصال الثَّواب والعِقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء، فإنَّه أبلغ في التَّبشير والإنذار[2].

الالتفات مناسَبةٌ للخطاب في السّياق غيبةً، وحضورًا

الآية تُخاطب عيسى عليه السلام بوفاته ورفعه إلى السَّماء والتَّطهير من الكفَّار، لذلك كان الأَولَى أن يكون غَيْبًا، بَيْدَ أنَّ الموضوع يخصُّ الجميع ولا أحد يستطيع الفرار من المصير، فأتى الخطاب المباشر، لهذا تحوَّل الأسلوبُ من صيغة الغيبة إلى الخِطاب[3]، فعَدَل عن الغَيْبَة إلى الخطاب؛ لتَغليب الحاضر على الغائب، لَمَّا دخل معه في المعنى، وهو محمَّد ﷺ. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله من المعنى: كأنَّه قيل: أمَّا الدُّنيا: فالحال فيها ما ذكرنا، وأمَّا الآخرة: فيقع فيها الحكم في اختلافكم في الدِّين وأمر عيسى[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(3) مقري، النَّص القرآني وبلاغة الأداء، ص: 153.
(4) الواحدي، البسيط: 5/308.

الغرَض من تقديم الجار والمجرور:

دلالـة التقديم حَـضْـرُ المرجع إليـه، وتوكيد وعده ووعيده

تقدَّم الجار والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ للحصر المفيد تأكيد الوَعد والوَعيد[1].

دلالةُ الخِطاب في الفاصلة:

الخطاب بضمير المُتكلِّم دليلُ هيمنته سبحانه فهو الحَاكِمُ الذي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

ورد التَّعبير بلَفْظَة: ﴿إِلَيَّ﴾، ولَفْظَة: ﴿فَأَحْكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْحَاكِمَ هُنَاكَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ في الأرض ولا في السَّماء، وَأَتَى بِالْحُكْمِ مُبْهَمًا، ثُمَّ فَصَّلَ الْمَحْكُومَ بَيْنَهُمْ - بحسب ما سياتي في الآية القادمة - إِلَى: كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ، وَذَكَرَ جَزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ[2].

وجْه التّعبير بضمائر المُخاطبين:

توجيه الكلام لعيسى عليه السلام وأتباعه، أو للنَّبيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ

الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِمَّا خَاطَبَ اللهُ بها عِيسَى، وَأَنَّ ضَمِيرَ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُخَاطَبِينَ، عَائِدٌ إِلَى عِيسَى وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونَ ﴿ثُمَّ﴾ لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ، زِيَادَةً عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ وَالتَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ[3].

التَّعبير بدلالة العُموم في قوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾:

جَـاءَ اللَّـفْـظُ عَـامًّـا؛ لـكون الْأَمْـرِ فِي نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ

القَصدُ من قوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ الْإِخْبَارُ بِالْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ؛ فَلِذَلِكَ جَاءَ اللَّفْظُ عَامًّا مِنْ حَيْثُ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ، فَخَاطَبَهُ كَمَا يُخَاطِبُ الْجَمَاعَةَ، إِذْ هُوَ منها، وَإِذْ هِيَ مُرَادَةٌ فِي الْمَعْنَى[4].

فاعلية التَّناسب بين الصَّوت والدَّلالة:

في هذا الخطاب مَلْمحٌ دقيقٌ في ثلاثة مواضع مُتتالية للإظهار

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445.

الدّلالة الصّوتيّة للإظهار الشّفوي تكشف عن رجوع الخَلْقِ كُلّهم إلى الله تعالى وحده

الشَّفَويِّ الأشدُّ إظهارًا، جاءَ على صُورةٍ واحدةٍ، وهو إظهار الميم السَّاكنة عن الفاء، وهذا التَّعبير يحمل بيانًا واضحًا وتأكيدًا جازمًا على معنى الآية، وهو رجوع الخَلْقِ كُلّهم إلى الله تعالى وحده، فيحكم بينهم بالعدل فيما اختلفوا فيه، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49].

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور في الفاصلة:

في التّقديم اختصاصٌ، واهتمامٌ، وتشويقٌ، ورعايةٌ للفَاصِلَة

في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ قدَّمَ الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ عَلى مُتعلّقه ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم والتَّشويق للمُؤخَّر، ولاختصاص الله تعالى بذلك، وقصر الرّجوع إليه سبحانه وحده، أي: إليَّ وحدي، وليس إلى أحد غيري؛ إلى جانب رِعاية الفواصل[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والموت:

الموتُ عبارةٌ عن زوال القوَّة الحيوانيَّة، وإبانة الرُّوح عن الجسَد[2]، أمَّا الوفاة فهي أعمُّ مِنَ الموتِ، فهناك الوفاة الصُّغرى، وهي النَّوم، فإنْ نام الإنسانُ خرجت روحُه من جَسَده إلى أجلٍ مُسمَّى، فإن كُتب لها العودةُ عادت، وإلَّا فارقت جسدَها، ورحلت عنه إلى الأَبَدِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42]، وكلُّ مُتَوَفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ مُتَوفًّى. ولم يتحدث القرآن عن عيسى عليه السلام بالموتِ أبدًا، إنّما كان ذلك بالتَّوَفِّي ومشتقّاته، وفي ذلك دلالة على أنّه لم يمت، بل رُفع إلى السّماء في نوم أو يقظة، وبقي حيًّا، حياة تتناسب مع طبيعة السّماء، ثمّ ينزل في آخر الزّمان.

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/176.
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/123.

التَّطْهير والتَّخْليص:

التَّخْلِيصُ وَالتَّطْهِيرُ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّ لَفْظَ التَّطْهِيرِ فِيهِ رِفْعَةٌ لِلْمُخَاطَبِ[1]، إذ التّطهير تخليص أو إبعاد عن النّجاسة الحسّية والمعنويّة، وَالتَّطْهِيرُ نأيٌ عن السّوء، وبُعدٌ عن الفواحش، وصفاء للباطن، وجمالٌ في الظّاهر، ومفاده أنَّ النّبوّة والرّسالة، إنّما أوجدها الله لإعطاء القدوة، بإلزام النّفس بمجافاة القبائح، وترك المفاسد والرّذائل، والتّخليص انفكاك عنها، لكنّ التّطهير مبالغة في التّخليص، بحيث لا يبقى من أثرها شيء، فيكون التّطهير المستعمل في الآية، وفي مواقع كثيرة من القرآن، مرادًا به التّنقيّة والتّجلية؛ وهو معنى أعمّ دلالة، وأقوى تعبيرًا.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/178.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»